

التسامح في الغيرة في شعر مسكين الدارمي

د. مرزوق بن صنيان بن تيباك



لم يكن خطأ اعتبار عصر بني أمية عصر اكتمال فنون الشعر العربي وظهور كناناته واستوائه على سوقه حيث تفرع مذهب القول وتميز الشعراء كما تميزت مذاهبم الفنية وظهر بجلاء فن القفاض واكمل نمازه، وظهر شعر الغزل بشقيه الصريح والعذري، وعرف شعراؤه ومريدوه، وفي هذا العصر ظهر المذهب السياسي في الشعر فكان له أنصاره وشعراؤه.

وقد كان عصر التفتح على بنايع الشعر والنهل من موارده وتفجيرها إلى عيون جارية أفاضها شعراء عصر بني أمية على سطح الأرض وفرعوها إلى جداول وأنهار تسقي العواطف المنتهية المتطلعة إلى شتى فنون الحياة. فصارت فنوناً تصور المجد والسياسة وتصور الفرح والغضب، وتدغدغ عواطف الأجواد والولاء والخلفاء، وتحرك مشاعر الحب الكامن في النفوس، وتستنهض العواطف المشغولة باللهو وضروب الجمال، وتصور الحرمان والبؤس والظلم الاجتماعي، وتهجو غضباً وتمدح رضاً ومحثاً على الجهاد وتدافع عن المذهب الديني والسياسي، فأصبح الشعر باختصار صورة للحياة النائرة المنتهية عند بعض الفئات والفرق كما أصبح صورة للحياة الهادئة المنعمة المطمئنة عند فئات أخرى. وكاد يتميز كل شاعر بمذهب خاص يحسنه ويظهر بهذا المذهب براعته ويسير معه في مذهبه عدد من الشعراء فيصبح

عندئذ مدرسة لها أتباع ومريدون وجمهور مطرح. فعل سبيل المثال، مدرسة القائلن نضجت على يدي شاعرين عظيمين وتكوّن لها جمهور كبير من المحبين لهذا الفن.

ومدرسة الغزل الصريح والعذري تميزت بشعرائها ومريديها وجمهورها الخاص، قاد الفريق الأول عمر بن أبي ربيعة دون منازع فعدّ رأساً لها وتكوّن له مذهباً فنياً عرف به دون سواء، وتنازع قيادة الفريق الثاني عدد من الشعراء الكبار أتى في مقدمتهم جميل بن معمر وبنون ليل قيس بن الملوّح وغيرهم كثير ممن سار على مذهبهم.

وتشكلت الطبيعة حية تنبض فيها الروح مملوءة بالحركة لدى شاعر الطبيعة ذي الرمة، رسم ما في الصحراء من واقع، وجسد خياله حيواناتها ومياهاها وجبالها ورمالها، ولوّّن الطبيعة التي عرفها في تقلبات أحوالها فصوّرها محضرة ممرعة في الربيع قاسية باردة مجففة في الشتاء ملتية محرقة في الصيف، ثم أحسن تصوير انعكاس هذا المناخ ودوارج الرياح ومور العواصف وهطول الغيث وصواعق السحب ووميض البرق على حياة ساكنتها من حيوان وإنسان.

فتميز له مذهب عرف به وتفرّد بالجودة فيه عمّن سواه من طرق هذا الفن، ومثل هذا في تميزه في فنه وإحسانه له كان الكميّ متميزاً في مذهب آخر تناه على الجدال المنطقي والاحتجاج المذهبي وسخر الشعر لمطلب سياسي فأحسن الدعاية وأجاد وسائل الإقناع وتحوّل الشعر على لسانه إلى جدل عقلي مضحك قائم على الربط بين حاجة العقل وبواعث العاطفة فكان لمذهبه الشعري تميّز عرف به وتبعه فيه آخرون كانوا يتخذونه قدوة ومثالاً يحتذونه، فأصبح بذلك مدرسة قائمة المعالم.

وما قيل عن هؤلاء يقال عن عشرات غيرهم من شعراء المدح وطلاب الجدة ومهتلي المناسبات وأهل العصبية ورواد الغنيمة.

وبالرغم من تميز هذه الفنون واكتناها في عصر بني أمية⁽¹⁾ بحيث أصبح كمال المذهب الفني معزواً إلى شاعر بعينه أو عدد من الشعراء⁽²⁾ إلا أن الثابت لدى المهتمين بالدراسات الأدبية أن هذه الفنون لها بدايات وأصول موجودة مطروقة فيما سبق من العصور منذ الجاهلية وأنها معروفة لدى الناس، وأن الذي طرأ عليها إنما هو تطور وحسب.

وإذا كان للشعراء في عصر بني أمية من فضل فإنها هو فضل الرقي بها والوصول بها إلى درجة الكمال الفني، فالتقص في الشعر يعود تأرخه إلى بدايات الشعر الأولى ويأتي على لسان امرئ القيس وعبيد ابن الأبرص قال امرؤ القيس⁽³⁾.

بَا لَهْفَ هِنْدٍ إِذْ عَطِثْنَ كَاهِلًا... تَاهِبٌ لَا يَذْهَبُ شَيْخِي بَاطِلًا
حَتَّى أَبِيرَ مَالِكًا وَكَاهِلًا... الْقَاتِلِينَ الْمَلِكَ الْحَلَّاحِلَا
عَبِيرَ مَعَدٍ حَبًّا وَتَالِلًا... وَعَبِيرَهُمْ قَدْ عَلِمُوا شَمَالِلَا

فيغض عبيد بن الأبرص

- يَاذَا الْمُخَوَّفَنَا بِقَثُ... لِ أَبْنِهِ إِذْ لَأَلَّا وَحَيْنَا
- أُرْعَمْتَ أَتَكَ قَدْ قَلَّذ... ت سَرَانَا كَلِيَا وَمَيَا
- هَلَّا عَلَى حَجْرٍ بِنِ أَم... قَطَامِ تَبِكِي لَا عَلِيَا

والغزل بشقيه الصريح والعدوي عرف مع بداية الشعر العربي في الجاهلية^(١) وقُلْ مثل ذلك عن بقية الفنون الشعرية:

لكن الشعر في عهد بني أمية لم يخلُ من جديد حادث متميز بجدته لا نجد له مشابهاً في أصول الشعر الجاهلي ولا في شعر صدر الإسلام. هذا الجديد جاء متمثلاً على لسان الشاعر مسكين الدارمي عندما طالب بنيد الشطط في الغيرة على المرأة فانفرد برأيه وحطه عبء التصريح بموقفه الراض لمخالفة بعض العرب في الغيرة، مخالفاً إيَّاهم فيما يعدونه من كمال المروءة، معلناً أن الغيرة وهم كبير في ذهن الرجل الغيور لا يمكن أن يضمحل الحماية الكافية للمرأة.

وقد جاءت هذه الظاهرة في شعره بخاصة وتميزت عنده لكنها بقيت عقيماً في نفسه لم تنتشر عند غيره من الشعراء ولم تنتقل إلى منج الشعر بعد ذلك.

ودراسة هذه الظاهرة في شعر الدارمي ستقود إلى إطلاقة على معنى الغيرة عند العرب ومكانتها في التقاليد العربية وفي الشعر العربي، ثم بعد ذلك النظر ملياً في رأي الشاعر فيها وبعد ذلك التعليل الممكن للموقف الذي أظهره مخالفاً فيه من عاصره من الناس ولم يجاره فيه أحد من لحق به بعد ذلك.

الغيرة:

الغيرة مصدر من قولك غار الرجل على أهله، والمرأة على بعلها تغار غيرة، والغيرة هي الحمية والأنفة^(٢). وأقرب حمية الرجل أن يغارَ على محارمه وزوجته^(٣) وأن يفتخرَ بذلك ويظهره في الناس وقد اشتطت العرب في الغيرة ومدحوا بها وفخروا بشدتها على المحارم وعُرف منهم الغيور الذين كانت

لغيرتهم قصص أشبه بالخيال ومن هؤلاء عَقِيلُ بْنُ عُلْفَةَ المُرِّي الذي كان معاصراً لمسكين الدارمي وقد ضرب بغيرته المثل^(٧) وكان أحد نماذج التطرف والمبالغة المقوتة ولشدة شططه في الغيرة كان يفضل موت البنت على حياتها ويعمل القبر أكرم الأصبهار مع أن أصهاره خلفاء بني أمية وسادات قریش لكن القبر يظل مفضلاً عليهم كما يقول:

- إِنِّي وَإِنْ سَبِقَ لِي الْمَهْرُ • أَلْفٌ وَعِندَكَ وَذُوذُ عَشْرُ -
أَحَبُّ أَصْهَارِي إِلَيَّ الْقَبْرِ^(٨)

وإذا كان الإسلام قد حال بين عقيل وما يريد فقد وجل الجوع والمُرِّي سببين معقولين يمكن أن يحولا بين المرأة والرجل في رأيه فإذا أراد سراً فسل عن خلف على أهله وأبن غيرته قال: أخلف معهم حافظين، الجوع والمُرِّي، أجمعهن فلا يرحن وأعرين فلا يبرحن^(٩) وكان لا يرى الرجل يحدث المرأة من أهله إلا أوقع به أشد العقاب^(١٠). هذا في الإسلام الذي حفظ للإنسان الحق والكرامة أما في الجاهلية فكانت المرأة موضع شك الرجل وموطن ريبة وقد وصفها الحارث بن عمرو بقوله:

- كُلُّ أَنْثَى وَإِنْ بَدَا لَكَ مِنْهَا أَنْثَةُ الْحَبِ حُبُّهَا حَيْصُورُ -
إِنْ مَنَ عَرَّهَ النِّسَاءَ بِوَدْعِهِ • بَعْدَ هَذَا لِجَاهِلٍ مَعْرُودُ^(١١)

ومن أمثالهم الدالة على شدة غيرتهم «كُلُّ شَيْءٍ مَهْمَةٌ مَا خَلَا النِّسَاءَ وَذَكَرَهُنَّ» أي أن الرجل يحتمل كل شيء حتى يأتي ذكر حرمه فيمتعض حيثئذ، فلا يحتمله^(١٢) وقد جرَّ الشطط في الغيرة إلى أقبح عادة عرفت عند العرب وهي وأد البنات وقد ذكر المفسرون والمؤرخون أن من أسباب وأد البنات عند العرب الغيرة عليهن والخوف من أن يسبين فنتهك حرمانتهن أو أن يزوجن بغير أكفاه^(١٣) وقالوا في سبب ذلك أن المشرج الشكري أغار على بني سعد فسيب منهم نساء واستاق أموالاً وكان في النساء امرأة خلها قيس بن عاصم الذي وصفه الرسول بسيد أهل اليرب، اصطفاها المشرج لنفسه فخيرها، فاختارت البقاء معه على العودة مع قيس فانصرف قيس ووأد كل بنت ولدت له^(١٤) وقبل قيس بن عاصم ذكر أن المهلهل بن ربيعة أمر زوجته حين ولدت له بنتاً أن تقتلها، فأمرت خادماً لها أن تغيبها عندها ثم بدا له فأمر بإحسان تربيته فكبرت حتى تزوجت.

وليس غرض هذا البحث التعرض لقضية الوأد عند العرب إنما الغرض تأكيد أن من أسبابه غيرة العربي وخوفه من العار حتى إن بعض المصادر قد صرحت بأن قيس بن عاصم المتفري ما كان يند إلا خشية سوء الأحذونة والفضيحة في البنات^(١٥).

أما القرآن فقد صرح بسبب واحد لله للقتل وهو الخوف من الفقر فقال تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ، وَإِيَّاكُمْ) ^(١٧) وقال تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) ^(١٨)

والولد يشمل الذكر والأنثى والأيتان السابقتان صرحتا بأن السبب هو خوف الفقر، لكن صرحت آيتان في القرآن بقتل الأنثى من الولد خاصة في قوله تعالى (وإذا المؤودة سثلت بأي ذنب قتلت) ^(١٩) وقوله: (وإذا بشر أحدهم بالأنثى. ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب) ^(٢٠) والإشارة في هاتين الآيتين. إلى الأنثى خاصة دون الذكر والدافع لوأدها خفي ولم يقترن بالفقر وليس ثمة من سبب لقتل الذرية بعد الفقر إلا خوف العار وهذا ناتج عن الغيرة ولذا خصت الأنثى به.

وإذا كان القرآن قد نص في بعض الآيات على سبب واحد هو الفقر. فإن الغيرة قد تكون من الأسباب التي لم ينص عليها القرآن لأن قيس بن عاصم المنقري والمهلهل بن ربيعة كانا يتدان مع غناها ووفرت مالهها وكفالتها للخدم أثناء الأمر بالوآد. كما في قصة المهلهل.

أما المؤرخون فجمعوا على أن العرب خصت البنات بالوآد دون البنين، وكلا الجنسين يحتاجان إلى الطعام ^(٢١). وفي عدم التصريح بالسبب في الآيتين الأخيرتين ما يجعل احتمال القتل من أجل الغيرة قائماً، أما في الآيتين الأولىين فالغرض من الإشارة بتقبيح قتل الأولاد خوف الفقر وفي ذلك ضعف اعتماد القائلين على الله وقد يتخهم بالعجز عن قوت أولادهم فغيرهم بذلك بينما تعد الغيرة من مكارم الأخلاق التي لا يذم الإنسان بها، والقرآن ساق ذلك في سياق الدّم ولم يجعل الغيرة من أسباب القتل التي يُعبر بها المشركون.

وهنا يمكن أن يقال بأن للغيرة معنى عاماً يدخل فيه ما ذكر. أما من يستقريء الشعر العربي فيسجد أن من دوافع استنائة الأبطال دون الحمى وإبراز صفات البطولة شعور الرجل بالغيرة على النساء عامة. فالغيرة عنده هي الدافع على القتال والتضحية بالنفس حتى لا تمس الحارم بقول زهير بن مسعود الضبي:

- فحَيْرَ نَحْنُ عِنْدَ النَّاسِ مِنْكُمْ... إِذَا الدَّاعِي المَشُوبُ قَالَ يَالَا -
- وَلَمْ تَشِقِ العَوَالِقُ مِنْ عَيُورٍ... بِعَيْبَرِيهِ وَحَلَسِينَ الحِجَالَا ^(٢٢)

وحماية المرأة والغيرة عليها حديث مكرور عند الشعراء مقرون بالحمية والشجاعة بقول كثير:

- وَنَحْنُ غِيَارَى ذَوْنُ كُلِّ غَرْنِدَةٍ نَكْنُ أَدِيمًا وَاهِجًا وَشَوَى عَبْلًا
- وَنَحْمِي إِذَا اشْتَدَّ الْهَيْجُ... نِسَاءَنَا وَلَمْ يَرِ ذُو عَيْنٍ لِنِسْوَتِنَا حِجْلًا^(٢٣)

أما عمر بن لجأ التيمي فيربط حين أعدائه بقلة غيرتهم على نساءهم ويجعل ذلك سبباً للنكابة بهم في حين يبرز حال قومه ويذكر غيرتهم على النساء ليرى البون الشاسع بين الحيين فيقول:

- لَقَدْ دَعَرْنَا قَدِيمًا فِي نِسَائِكُمْ... وَلَمْ تَعَارُوا وَلَمْ تُسْتَنْكِرِ الدُّعْرُ^(٢٤)

ويصور قومه على خلاف أعدائه فيقول:

- إِذَا أَغَارَ شَمِيطٌ نَحْوِ نِسْوَتِنَا... غِرْنَا عَلَيْنَهُنَّ إِنَّا مَغْفَرٌ غَيْرُ^(٢٥)

ويقول:

- قَلَوُ غِرْتُمْ يَوْمَ الْحَرَالِ لَمْ تَرِحْ... مَعَ الْقَوْمِ أَبْكَارُ النِّسَاءِ وَعَوْنُهَا^(٢٦)
كما يقول أيضاً:

- نَعَارُ عَلَيْنَهَا غَيْرَةَ مَضْرِبَةٍ... إِذَا مَا انْتَضَيْتَا الْمِشْرَفِي الْمُهْتَدَا^(٢٧)

وإذا ذهبتا تتبع الشعراء في هذا المضمار وجدنا زيد بن الطُّرَيْبَةَ يذكر هذه المعاني أكثر من مرة^(٢٨)، أما جرير فقد حام حول موضوع الغيرة على النساء وجمع بينها وبين الحمية في القتال كثيراً في شعره. كما مدح ذو الرمة ولاة بني أمية بالحمية العربية وسماها غيرة وجعل لها معنى شاملاً حين يقول:

- يَسْأَرُ بِلَالٍ غَيْرَةَ عَرَبِيَّةٍ... عَلَى الْعَرَبِيَّاتِ الْمُقِيمَاتِ بِالْمِصْرِ^(٢٩)

فلم تعد الغيرة مقصورة على المحارم وأصبحت محمداً يقوم بها حامى الذمار والحافظ للذم. ولم يخل ديوان شاعر من ذكر هذه المعاني سواء كان ذلك في سبيل المدح أو الفخر بنفس الشاعر وقومه أو في سبيل الذم لأعدائه والانتقاص من شهامتهم.

أما الغيرة في معناها الخاص المرتبط بالعلاقة المحددة بين الرجل والمرأة فقد صورها العشاق الذين يخلسون العيون ويبتلون الغرة والغفلة وبكوا منها كما بكى منها الذين يودون ألا توصل الأبواب في وجه علاقتهم فتحذثوا عن شدة الغيور وجعلوا الغيرة موضوعاً يدور حوله شعر العشاق الذين أحسوا أنها تقطع صلاتهم، وتحول دون رغباتهم وأنها فوق قدرة إحسانهم، وأصبح الغيور في نظرهم منفصلاً للشاعر الوفاء، وانقسم العشاق لذلك إلى فئتين ففة تصور خوف المرأة من عين الغيور وحذرهما من الوقوع في

قبضته وهي في خلوة مع رجل أجنبي على نحو قول بعضهم:

- وَلَتُّ وَإِنْ أُوْعِدْتُ فِيهَا بِمُنْتَهٍ... وَإِنْ أُرْقِدْتُ نَارُ قَسْبٍ وَقَوْدُهَا (٣٦)
على أن الموت هو العقوبة المقدرة للعاشقين إن وجدا متلبسين بشيء يسيء إلى الشرف والكرامة أو
يخدش حرمة الغيور بقول الشاعر:

- فَلَا يَجِدَنَّكَ الْأَعْدَاءُ عِنْدِي... فَتَكُلُّنِي وَإِيَّاكَ التُّكُولُ (٣٧)
أما الفقرة الثانية من الشعراء فلم تبخل علينا بنقل الشعور الذي يثيره العشاق وتثيره المرأة في نفس
الغيور، ورد الفعل لديه حين تأخذه الوسواس وتتحرك في نفسه الشكوك فيجاء الألم والريبة والشك
المظلم في نفسه، فيحاصر المرأة ويجعل عليها حجاباً دون الناس خوفاً العار كما صور عبيد الله بن قيس
الرقيات بقوله:

- لَهَا بَعْلٌ غَيُورٌ قَاء... عِدُّ بِالْبَابِ يَحْجُبُهَا (٣٨)
- يَرَانِي هَكَذَا أُنْشِي... فَيُوعِدُهَا وَيَهْرُسُهَا -
أو قول الآخر:

- أَلَا يَحْسِبُ الشَّيْخُ الْغَيُورُ بِنَاءَهُ... مَخَافَةَ جَنَبِي السَّمَائِلِ مُحْتَالِ (٣٩)
كما صوروا الألم الحثي والبغض اللدغين لدى الغيور الذي لا يجد منه متنفساً يعينه على الراحة ويبعث
في نفسه الإطمئنان بقول الشاعر واصفاً ذلك:

- وَظَلُّ الْغَيُورُ آيْضاً بِبَنَائِهِ... كَمَا عَضُّ يَرْذُونُ عَلَى الْفَأْسِ جَامِحُ (٤٠)
- كَثِيباً يَرُدُّ اللَّهْفَتَيْنِ لِأُمِّهِ... وَقَدْ مَسَّهُ مِنَّا وَمِنْهُنَّ نَاطِحُ -

وقد تدفع الغيرة صاحبها إلى تجريد عصاه على المرأة وتهديدها بالقتل، فيقع هذا الحال موقع الألم
في قلب المحب فيصور شعوره على نحو قول جميل بن معمر:

- أَمْضُرُوبَةٌ لَيْلَى عَلَى أَنْ أَرُورَهَا... وَمُسْخِدٌ ذَنْباً لَهَا أَنْ تَرَابِيَا (٤١)
أو قوله:

- إِذَا جِثَّتْهَا يَوْمًا مِنَ الدُّهْرِ زَالِرًا... تَعْرَضُ مَنُفُوسَ الْيَدَيْنِ صَدُودُ (٤٢)

أما ذو الرمة فيجعل الغيور قتيل الهَمِّ والكبد عاجزاً عن معرفة ما يراود نفسه، فيموت متألماً مما يعاني في خلجاته من شدة الغيرة في حين أنه يحاول ستر ما يقاسي وطبّة عن الناظرين يقول:

- بَكَى زَوْجُ مَيٍّ أَنْ أُنِيختَ فَلَا يَصُ... إِلَى بَيْتِ مَيٍّ أَحْمَرَ اللَّيْلِ طَلْحُ^(٦٣)
- لَيْتَ كَمَدّاً يَا بَعْلَ مَيٍّ فَإِنِّهَا... قُلُوبُ لِمَيٍّ أَمْنُ الغَيْبِ نُصْحُ -

وقد يسمع العاشق ما يكره من المرأة التي أحب فلا يغير ذلك من شعوره نحوها شيئاً لأنه يجيل ذلك إلى غيره الغيور ويجعله مسؤولاً عنه فيقابل ما تظهر من إساءة بالغفوك كما يقول كثير:

- يُكَلِّفُهَا الغَيْرَانُ شَتْمِي وَمَا بِهَا... هَوَانِي وَلَكِنْ لِمَلِيكَ اسْتَدَلَّتْ^(٦٤)
- هَيْبَتاً مَرِيئاً غَيْرَ ذَاهٍ مُخَابِرٍ... لَعَزَّةٍ مِنْ أَغْرَاهِيسْنَا مَا اسْتَحَلَّتْ -

وقد بلغ الشطط في الغيرة حدّاً بعيداً، في ذلك العصر، وأدرك معاوية رضي الله عنه شطط الناس في زمانه في الغيرة والمبالغة غير المحمودة فيها فقال كلمة المشهورة: ثلاث خصال من السؤدد وذكر منهن عدم الشطط في الغيرة، وما كان ذلك منه إلا محاولة لردع الناس عن الاستمرار في المبالغة فيها والحذر منها^(٦٥).

اسكين الدارمي والغيرة:

بالرجوع إلى استقراء كتب التراجم والأدب وشواهد الشعر ومظانه، والأحداث العظيمة التي تأتق فيها شعره لا نجد لها تضن يذكر اسمه ونسبه^(٦٦) وشاعريته وقد يتراءى للباحث المتسرع أن في هذه الكتب مادة غزيرة وأخباراً كثيرة عنه، ويجيل إليه أن شهرة الشاعر ومشاركته في أحداث عصره تحمله محلاً بارزاً عند مؤرخي الأدب ومتبعي الأحداث ويسلمه تردد ذلك في أغلب المراجع إلى الظن بأن هذه الكتب لن تضن عليه بما يريد عن حياة الشاعر بجوانبها المختلفة، ولكنها في الواقع ضئيلة بجملة كل البخل أن أراد الباحث منها ما يسعف عن جوانب حياته التي قد تكون وراء بعض الآراء الواردة في شعره فكل ما يجده لا يتجاوز نسبه واسمه وسبب تلقيه «مسكيناً» وتفتنا تتعلق بأرومته وأبياتنا متناثرة من شعره يجدها هنا وهناك كما يجد فيها حديثاً مكروراً عن رثائه لزياد وترشيحه «بزيده» للخلافة وذكر الحكم في شعره هذه هي الموضوعات المكررة التي تناقلتها الكتب والتراجم والأخبار.

فالتناقض أشارت إليه عند استعراض بواعث المعركة الحامية التي اشتد أوارها بين فحلي تميم جرير والفرزدق، كما ذكرت مهاجاته للفرزدق^(٦٧) أما ابن سلام في طبقات فحول الشعراء فقد أهمله ولم

يُعمل له مكاناً مع الفحول بالرغم من ذكر مهاجاته للفرزدق في معرض حديثه عن الأخير واستعراض أياته التي هجا الفرزدق بها ولم يطل الحديث عنه^(٤٧) أما الطبري في تاريخه فيذكر حربه للخوارج مع بني الرواح، ورتائه لزياد ومهاجته للفرزدق وحربه للمختار بن عبيد مع أشرف الكوفة^(٤٨) بينما يشير البلاذري في أنساب الأشراف إلى مسكين الدارمي وقصة قتاله الخوارج مع جنود بني أمية، ويورد بعض ما نسب إليه من رجز لم يضمه الديوان^(٤٩). كما ترجم له من المتأخرين صاحب خزنة الأدب وذكر شيئاً من شعره^(٥٠) وفعل مثل ذلك عدد غير قليل من المؤلفين الذين نقلوا عن المصادر السابقة ومع كل ذلك فلولا ما جمع أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني من إبحامات متفرقة مبسطة عن جوانب مهمة في استكناه حياة الشاعر، واستقراء المؤثرات في بناء شخصيته لما تجرأ الباحث على الخوض في تحليل ظاهرة الغيرة عنده ولصرف النظر عن هذه الدراسة لقلّة ما أوردت تلك الكتب من المعلومات.

قلنا أن الدارمي يشكل ظاهرة خاصة في مجال الغيرة وذلك بخروجه على المألوف وقلسته لموقف لم نر له مثيلاً عند شعراء عصره ولا نشك أن الشطط في الغيرة بلغ أوجه في ذلك العصر فالشعراء المشهورون المعاصرون له كانوا في مواكبة الاتجاه العام نحو تأصيل الغيرة وعدم التسامح في أمرها، وشعرهم أوضح من أن يخفى على أحد، أما من عداهم من الشعراء فقد تتبع البحث دواوينهم ومجموعات أشعارهم ومنهم على سبيل المثال:

- ١ - سراقه البارق.
- ٢ - المزرد بن ضرار.
- ٣ - توبة بن الحمير.
- ٤ - عبدالله بن الرّيب.
- ٥ - القتال الكلابي.
- ٦ - يزيد بن مفرغ الحميري.

ووجد أن شعر هؤلاء كشعر الفحول خال من ظاهرة التسامح في الغيرة التي انفرد بها مسكين الدارمي مما جعل المقارنة بين شعره وشعر غيره من معاصريه أمراً غير وارد.

فكان لا بد من الرجوع إلى شعره خاصة والنظر فيه للتعرف على ميوله الفنية وبالتالي التعرف على البواعث التي جعلته يخالف غيره في مسألة تتصل بصمم الخلق العربي الأصيل.

شعره:

إذا عدنا إلى شعره وجدنا الذي وصل إلينا منه قليلاً، لم يتجاوز خمساً وخمسين قافية، أغلبها قطع كما يوجد فيها نسب إليه من شعر البيت والبيتان والثلاثة جاءت في ست وأربعين صفحة من الحجم المتوسط، جمعت من كتب اللغة والبلدان والأمثال^(٥١) وبجمل ما حفظ له من شعر كان يتصف بالحكمة التي استأثرت بحظ وافر من حجم الديوان^(٥٢) كما يتضمن الأمثال الرصينة إلى جانب ابتعاده في شعره عن الطيش والسفه وميله إلى الواقعية والتزوي، وقد أخذ نفسه بأسباب الكمال كما في قوله:

- أَعْفُ لَدَى عُسْرِي وَأَبْدِي تَجَمَّلاً... وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَعْفُ لَدَى الْعُسْرِ^(٥٣)
 - وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي إِذَا كُنْتُ مُعْبِراً... صَدِيقِي وَإِخْوَانِي بَأَنْ يَعْلمُوا قَفْرِي
 أو قوله:

- إِذَا لَمْ تَجِدْ بُدْأَ مِنَ الْأَمْرِ فَاتِهِ... رَجِيْبَ الذَّرَاعِ لَا تُصَيِّقَنَّ بِهِ صَدْرًا^(٥٤)
 - وَلَا تَأْمَنِ الْخِلَانَ إِلَّا أَقْلَهُمْ... عَلَيْكَ إِذَا كَانَتْ صَدَاقَتُهُمْ مَكْرًا
 وما يدل على ما يتمتع به الشاعر من وعي وصدق مع نفسه ومعرفة لأحوال الناس قوله:
 - أَلْقِ الْأَخْمَقَ أَنْ تُصَحِّبَهُ... إِنَّمَا الْأَخْمَقُ كَالثُّوْبِ الْخَلِيقِ^(٥٥)
 - كَمَا رَفَعْتَ يَدَهُ جَانِبًا... حَرَكْتَهُ الرِّيحَ وَهَنَا فَانْحَرَقَ...
 وقوله أيضاً:

- لَبِئْتَ الْأَحْلَامَ فِي حَالِ الرِّضَا... إِنَّمَا الْأَحْلَامُ فِي حَالِ الْغَضَبِ^(٥٦)
 وقوله: ^(٥٧) مكرراً،

- وَإِنِّي أَمْرٌ مِثِّي الْحَيَاءُ الَّذِي تَرَى... أَعْيِشْ بِأَخْلَاقِي قَلِيلٌ خِدَاعُهَا
 - أَوَاعِي رِجَالًا لَنْتُ أَطْلَعُ بَعْضَهُمْ... عَلَى سِرِّ بَعْضٍ غَيْرِ أَنِّي جِمَاعُهَا
 - يَطْلُؤُونَ شَتَى فِي الْبِلَادِ وَسِرُّهُمْ... إِلَى صَحْرَةٍ أَعْيَى الرِّجَالِ أَنْصَدَاعُهَا
 - لِكُلِّ امْرِئٍ شِغْبٌ مِنَ الْقَلْبِ فَارْغُ... وَمَوْضِعٌ نَجْوَى لَا يُرَامُ أَطْلَاعُهَا

وقد لا يكون الدارمي وحده متفرداً بكنزة طرح أبيات الحكمة إلا أن حكته وتأمله قادته إلى النظر

في ظاهرة الغيرة ووصل إلى قناعة بعدم جدوى الشغل فيها فرسم بذلك منهجاً جديداً في فن الشعر لمسه بلطف أبو الفرج الأصفهاني دون أن يطيل الوقوف عنده فقال في كتابه الأغاني بستد طويل يرفعه إلى أبي عبيدة جاء فيه قوله: أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار قال: حدثني محمود بن داود، عن أبي عكرمة عامر بن عمران، عن مسعود بن بشر عن أبي عبيدة أنه سمعه يقول: أشعر ما قيل في الغيرة قول مسكين الدارمي:

- أَلَا أَيُّهَا الْغَالِرُ الْمُسْتَشِيْبُ... طُ فِيمَ تَغَارُ إِذَا لَمْ تُعْرَ^(٥٨)

والحقيقة أنها لم تكن هذه القطعة فقط التي حملت هذا المعنى الذي أشار إليه أبو الفرج بل إن في شعره مجموعة صالحة تناولت الغرض نفسه الذي أعجب أبا عبيدة وهو غرض لم يوجد إلا عنده خاصة فكان علينا أن نقف عند هذه الإشارة ونتفحص شعره لعل البحث يقود إلى سبب مقنع دفعه إلى التفرد عن معاصريه مصمماً على إظهار بعض المعاني التي قد تواجهه بعدم الاستجابة من الناس.

لقد طرقت الشاعر فنون الشعر في عصره إلا الغزل إذ خلا ديواله منه كما خلا من وصف المرأة والحديث عنها أو إليها ونزه نفسه عن التقرب إلى كل ما يبعث الشك والريبة وابتعد عن مجالسة النساء ومحادثتهن التي قد تجر إلى ما لا يليق بشيمته فصور ذلك الموقف بقوله:

لَا آخِذُ الصُّبَّانَ اللَّئِمُهُمْ... وَالْأَمْرُ قَدْ يُعْرِِي بِهِ الْأَمْرُ^(٥٩)
أو قوله:

وَلَا أُرِي صَاحِبِي هِجْرَانَ زَوْجَتِهِ... لَا أَحَدَلُّهَا السُّوَاتِ إِنْ عَرَجَا^(٦٠)
وقوله أيضاً:

وَإِنِّي سَأَلْتَنِي اللَّهُ لَمْ أُرْمِ حُرَّةً... وَلَمْ تَتَمَنَّ يَوْمَ سِرِّ فَخِشْتَهَا^(٦١)

أما ما سوى ذلك فلم يذكر عن المرأة وعلاقته بها شيئاً، لكن الحديث عنها جاء عندما تحدث عن الغيرة وعن موقفه منها فكان منه ما ألمح إليه البحث فيما مضى. حيث أصبح سمة بارزة في شعره ولعل الأبيات التالية تدل على ما لديه من رأي، يقول:

مَا أَحْسَنَ الْغَيْبَةَ فِي حَيْثُهَا... وَأَقْبَحَ الْغَيْبَةَ فِي كُلِّ حَيْثُ^(٦٢)
مَنْ لَمْ يَزَلْ مُتَّهِماً عِرْسَهُ... مُنَاصِباً فِيهَا لِوَهْمِ الظُّنُونِ^(٦٣)

بِوَشْكَ أَنْ يُغْرِبَهَا بِالَّذِي... يَخَافُ أَوْ يَنْصِبَهَا لِلْعَبُودِ
حَبْلِكَ مِنْ تَحْصِينِهَا صَمْتَهَا... مِنْكَ إِلَى خُلُقِي كَرِيمٍ وَقَيْنُ
لَا تَطْهَرُنْ مِنْكَ عَلَى عَوْرَةٍ... فَيَنْتَبِعُ الْمَقْرُونُ حَبْلَ الْقَرْنِ

تعد هذه الأبيات تمهيداً وعرضاً واقعياً لما سوف يعرض الشاعر من رأي صريح في الغيرة، فهو في البداية لا ينكر أن يكون الرجل غيوراً ولكن في الموضع المناسب للغيرة يبحث لا يسرف في الشك ولا يستبد به الوسواس، مخافة أن يكون للتطرف والمبالغة آثار عكسية على سلوك المرأة لكثرة سماعها كلمات التحذير والتهديد والتهمج موحية إليها بعدم الثقة في سلوكها مما تعدده خدشاً لكرامتها وانتقاصاً لشخصيتها.

وقد يعث تحذيره إياها زعزعة الثقة في نفسها فتستهيء الليل إلى ماغيث عنه ويكون الرجل بذلك قد أغراها بما لم يكن من طبايعها، أما إذا كانت ثقتها بنفسها أقوى من شكها التابع من الغيرة فقد يكون موقف الغيور دافعاً للناس الذين يتحدثون عنها ويجعلون الشك من الزوج والغيرة المفرطة نحو زوجته سيلاً إلى الحديث عنها والتطلع إليها ومراقبة تحركاتها وسكناتها فتصبح مجالاً للكلام وحجب القصص، إذن فالأمل في رأي الشاعر هو الابتعاد عن الريبة وترك الإفراط في الغيرة وأن يبدأ الرجل الغيور بالغيرة على نفسه هو، فلا يلوّث سلوكه ونصرفاته بما يعرّبه أمام زوجته ويكشف لها عن سوء وضعف في ميوله، فتتأثر بحكم الصلة بما حولها وتنتقل العدوى إليها وعليه أن يتعد عن الريبة ويهجر مواطن الشك فيصبح مستقر النفس وأرضي البال، ولا أخطر - في رأي الدارمي - على سلوك الزوجة من سلوك الزوج إذا كان يغار عليها ويتبع هوائها ثم لا يتمتع هو عن منكر ولا يقلع عن سلوك قبيح يفضي إلى الإنحراف. إن ذلك في رأيه جدير بسوق الزوجة إلى مواقع الريبة اقتداء بالقرين. وهذه القطعة التي مرت قد تكون من أوائل شعره في موضوع الغيرة إذ نجد فيها التمهيد المنطقي للفكرة التي يريد الوصول إليها، فهو لم يرفع العصا من أول وهلة في وجه الغيور كما لم يذم الغيرة في حد ذاتها وأثنى عليها في وقتها وبدأ وكأنه يؤطئ لأحكام ستكون أكثر صراحة على نحو قوله:

أَلَا أَيُّهَا الْعَالِمُ الْمُسْتَعِيدُ... طَّ عَلَامَ تَغَارُ إِذَا لَمْ تُغْرَ^(١١)
فَمَا عَيْرُ عِرْسٍ إِذَا عَفَّتْهَا... وَمَا عَيْرُ بَيْتٍ إِذَا لَمْ يُزْرَ؟
تَغَارُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَنْظُرُوا... وَهَلْ يَفْتِنُ الصَّالِحَاتِ النَّظْرُ؟
فَأَبِي سَأَخْبِي لَهَا بَيْتَهَا... فَتَحْفَظْ فِي نَفْسِهَا أَوْ تَلْزُ

إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُعْطِهِ وَذَهَابًا... فَلَنْ يُعْطِيَ الْوَدَّ سَوَاطٍ مُبِرَّ
بِكَادٍ يُقَطِّعُ أَضْلَاعَهُ... إِذَا مَا رَأَى زَالِرًا أَوْ نَفَرًا
فَمَنْ ذَا يُرَاعِي لَهْ عِرْسَهُ... إِذَا ضَرَّةٌ وَالْمَطِيُّ السَّفَرُ

هذه النص بعد تصعيداً للفكرة التي وطأ لها في الأبيات السابقة من خلال ما تؤكد له من واقع الحياة التي يعيشها ويشاهد تجاربها فنيا عن مثاليات الشعراء وتصوراتهم، ونحا منحى التأمل وبدأ يرسم الحياة كما هي أو أقرب ما تكون إلى طبيعة الأشياء التي يعيشها الناس ويشاهدونها تمر أمام أنظارهم فضرب المثل عن الواقع مصوراً أن غير الغيور وإن أبعدت عن المرأة كل سوء في حضرته وإقامته معها، فلن تحميا عند غيبته عنها، وقد تكون أقل غيبة للرجل عن أهله يوماً أو بعض اليوم حين يكون في سائنته أو في صيده أو في ورده وصدوره إن البيت سيخلو لها لا بحالة وإذا لم تجد من نفسها حارساً مانعاً فإن إقامة الزوج ورصده لحركاتها لن يدوما ولن يستمر في كل حال. إن الأمر في رأي الشاعر أهون من كل ما نجيش به نفس الغيور وأسهل مما تصور له أوهامه ووساوسه، إن مسكين واقعي في غيرته يريد أن يبني الاحترام والثقة في نفس الزوجين فتكون للزوجة الحرية والخيار ويجعل المحافظة على نفسها من شأنها هي ولها الحق في أن تسلك المسلك الذي يرضي ضميرها في مشهده وفي غيابها عنها، وهو لهذا السبب مصمم على أن يجلي لها بيتها ولا يحول بينها وبين نفسها، فالنفس نفسها والعرض عرضها والكرامة كرامتها فإن شامت حفظت وإن شاءت ضيعت، لكن الشاعر لم يرد أن تكون هذه قناعة شخصية ولكنه أعلن ذلك أمام الناس وعرضه مدلاً على صحة ما يذهب إليه من الأمر فالحياة في رأيه لا تعين الغيور على تحقيق ما يريد.

- وَأَنْي سَأَغْلِي لَهَا بَيْتَهَا... فَتَحْفَظُ فِي نَفْسِهَا أَوْ تَلْزَ-
- فَمَنْ ذَا يُرَاعِي لَهْ عِرْسَهُ... إِذَا ضَرَّةٌ وَالْمَطِيُّ السَّفَرُ-

وقد توفرت لديه قناعة لم تكن متوفرة ولا ظاهرة عند غيره من معاصريه من الشعراء ولا عند المجتمع الذي عاش فيه ولم يدرك مثل هذه القناعة غير المتأخرين بقرون طويلة، فالشاعر لا يقر عز المرأة وإغلاق الأبواب عليها ولا يرى في ذلك نفعاً ويرى أن تكون العيرة مغروسة في نفس المرأة وأن تربي عليها حتى تقوى عندها المناعة الذاتية والنفس الأبية الكريمة، كما يعتقد أن خروج المرأة ليس معناه التبرج، إنما هو ضرورة الحياة بالإضافة إلى أن التزاور والاتصال بين الناس نابع من فطرته البشرية ولن تقطعه العيرة:

- تَعَارُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَنْظُرُوا... وَهَلْ يَفْتَنُ الصَّالِحَاتِ الشُّظْرُ-

هذه القناعة التي ظهرت عنده في القرن الأول للهجرة لم تظهر إلا في العصر الحديث عندما هبت رياح الدعوة إلى السفر والاختلاط.

وتصدى الشعراء والكتاب للدفاع عن ذلك، وجاء الشعر ليعيد رأي مسكين بعد ألف وثلاثمائة عام في مثل هذا البيت:

- إِذَا لَمْ يَصْنِ الْأَدَبُ السَّعَوَانِي... فَمَا يُغْنِي الدَّمَقْسُ وَلَا الْحَرِيرُ-

وإذا كنا نعد القطعة الأولى التي وردت في صدر هذا البحث ممثلة للموقف المتأمل الذي يريد الشاعر عرضه نحو هذا العرف والتقليد وفيها حيد الغيرة في موقف وفي حال كما قبحها وقبح الأقبال عليها في حال آخر وجعل مراد ذلك كله ومحوره النفس الإنسانية التي جبلت على التمرد والعصيان على الإكراه والتسلط فإنه حاول أن يجعل للرجل نصيباً معقولاً في هذا المضمار ولم يحمل المرأة كل الأخطاء التي كان المجتمع في عصره يلقبها على كاهلها. وتحقق وقعها عن كاهل الرجل.

وقد كانت القصيدة الثانية خطاباً مباشراً صريحاً موجهاً إلى الغائر المستشيط كما بصفه موضعاً فيها صورة الخطأ في الاجتهاد وحطال الرأي الذي يذهب إليه ذلك الغائر المستشيط وأعلمه أن غيرته لن تحمي له زوجاً ولن تريح له بالأ. وكان في رأيه مستنداً إلى طبيعة الحياة وواقعها الذي يعرفه الناس، فالواقع المعاش لا يسعف الرجل الحريص على حماية المرأة وعزلها عن الرجال ووصد الأبواب دونها إن لم يكن لها من ذاتها حارس أمين لا يغيب ولا يسافر.

ولم يترك الشاعر رأيه دون برهان فذكر الغيور بما لا يستطع تجاهله وهو أن لزوم الرجل بيته يحرس عرسه مستجلاً، فمن له إذن بمن يقوم على مهمة الحراسة إن ضره والمطي السفر كما يقول، ولم يدع المخاطب دون جواب وتوجيه فأخبره بوسائل الحماية الحقيقية التي تحفظ له كرامته في غيابها كما تحفظها له في حضرته وتكون هي الملازم الحصين المنيع للمرأة، ذلك هو شعورها بكرامتها وإن خلا لها البيت.

أما القطعة الثالثة فهي إكمال للفكرة التي بدأ بها، وبالرغم من أنها تحمل المعنى الذي حملته سابقتها الموجهة للغائر المستشيط إلا أن الضمير هذه المرة يعود على الشاعر نفسه فهو يجعل من ذاته المخاطب والتحدث ويعبر عن قناعة فيها يمكن أن يأتي أو يدع وإذا كان الدارمي قد وطن نفسه على مواجهة الناس بحقيقة ما يعتقد صوابه فلا يهيمه أن يصرح عن فكرة اعتقد أنها مما تستجيب له طابع الناس وتتسق مع سلوك الحياة يقول في ذلك:

- وإني امرؤ لا آلفُ البَيْتَ قَاعِدًا... إلى جَنبِ عَرِيٍّ لَأُفَارِقَهَا شِيراً^(١٥)
 - وَلَا مُفَسِّمٌ لَأُتَبْرَحُ الدَّهْرَ يَتَّهَمًا... لِأَجْعَلَهُ قَبْلَ الْمَمَاتِ لَهَا قَبْرًا
 - إِذَا هِيَ لَمْ تُحْضَنْ أَمَامَ فَتَالِهَا... فَلَيْسَ يُنْجِيهَا بِنَالِي لَهَا قَصْرًا
 - وَلَا حَامِلٌ ظَنِّي وَلَا قَالَ قَائِلٌ... عَلَى غَيْرَةٍ حَتَّى أُحِيطَ بِهِ خَيْرًا
 - وَهَيْئِ امْرَأٍ رَاعَيْتُ مَا دُمْتُ شَاهِدًا... فَكَيْفَ إِذَا مَا غَيْتُ عَنْ يَتِّهَا شَهْرًا

مرت الأبيات التي لم نطلع على ما يمثّلها في معناها فيها وقفنا عليه من الشعر العربي، والدارمي في كل مرة يقلب القول في موضع الغيرة محافظاً على جوهر فكرته حتى أصبح أكثر واقعية وأكثر مواجهة مع الناس فنقل الحديث من أسلوب الوعظ والنصح إلى ما لا يمكن غيره وحقق القناعة الذاتية ونعّدت عن جوانب القضية التي يعالج أطرافها واتجه إلى نفسه متحدثاً وهو يريد أن يترك للسامع حرية الأخذ أو الرفض بما يعتقد أنه الصواب دون أن يفرض عليه أمراً يراه من خصوصياته فجعل القناعة الخاصة التي وصل إليها حقاً مشاعاً للناس عامة فأحسن عرض رأيه وجمع بين الصدق والإقناع.

- وَهَيْئِ امْرَأٍ رَاعَيْتُ مَا دُمْتُ شَاهِدًا... فَكَيْفَ إِذَا سَارَ الْمَطِيُّ بِنَا شَهْرًا
 جنح الشاعر إلى واقعية الحياة وجعلها أقرب إلى قلوب الناس وذكرهم بأنه إذا كان المجتمع يعطي الرجل حق الحماية والردع لسلوك المرأة في كل الأحيان فإن هذا الحق سيصبح ضائعاً عندما لا يجد الحامي بدأ من الغيبة، وخطأ المعادلة في رأيه أن الأعراف والتقاليد الاجتماعية أعطت الرجل الحق مطلقاً في أن يحجر على المرأة ويحد من حريتها واتصالها بمن لا يأمن بهم ولا يأمن جانبهم كما أن العادات لم تجعل الرقيب على سلوك المرأة داخلياً كما يجب أن تكون وإنما جعلته خارجاً بعيداً عنها بالرغم من أنها صاحبة الشأن.

وهو لا يخالف الأعراف الاجتماعية في الغاية، ولكنه يخالفها في الوسيلة التي تحقق للمرأة الصون والعهدة التي هي جوهر القضية، ورأيه أن تكون المناعة مطلقة من قناعة لدى المرأة بوجود حفظ الأمانة وليست واقعاً تفرضه عليها عادات وتقاليد قد لا تحترم في كل الأحوال.

ولا نريد أن ننهي البحث في ظاهرة الغيرة عند الشاعر قبل أن نضيف الأبيات التالية إلى رصيد موقفه المتسامح، وقد صرح فيها بما يمكن أن يفعل لو حدث شيء لا يرضاه فقال:

إِذَا مَا خَلِيلٌ خَانَنِي وَأَلْمَنْتُهُ... فَذَلِكَ وَذَاعِيهِ وَذَلِكَ وَذَاعِيهَا
 زَدَدْتُ عَلَيْهِ وَؤْدَهُ وَتَرَكَتُهَا... مُطْلَقَةً لَا يُسْتَطَاعُ رِجَاعُهَا

وَأُنْبِيْ إِمْرَأَةً مِّنْهُ الْحَيَاءُ الَّذِي تَرَى .. أَعِشْ بِأَخْلَاقِ قَلِيْلٍ حِدَاغَهَا

وبعد هذا العرض نستطيع أن نقول: إن موقف الشاعر من الغيرة متميز ولنا أن نتساءل عما وراء هذا الموقف وما الباعث عليه ولم انفرد به دون سواء من الشعراء؟

ولا بد من الخماس الأسباب الكامنة وراء اقتناعه بأهمية إعلان رأيه ومواجهة المجتمع الذي يعيش فيه بهذه القدرة من الشجاعة الأدبية، ولئن نطمع في تعليل هذه الظاهرة في شعر مسكين من خلال دراسة للأحوال الاجتماعية السائدة يومذاك فقد تبين أن المجتمع الذي عاش فيه كان يبيل إلى المبالغة في الغيرة والتطرف فيها حتى عدّها الشعراء الذين عاصروه إحدى الخصال الحميدة التي يمدحون بها ويدكرونها كأحد أمثلة مكارم الأخلاق التي جبل عليها العربي، كما أننا لن نطمع في العثور على سبب جليّ جعل الشاعر ينحو المنحى الذي لا وجود له عند غيره، وليس أمام الباحث غير الاجتهاد في الأسباب بعد استقراء حياة الشاعر الخاصة وصلاته برجال عصره من الخلفاء والولاة والمؤثرين الأقوياء في الحياة.

والاحتمال الممكن هو الالتفات إلى الشاعر وإلى حياته العامة وحياته الخاصة فلعل فيها ما يمكن أن يكون مبرراً معقولاً لوقوفه الموقف الراض لعادات المجتمع وقوانينه وما اصطلاح عليه من مواصفات اجتماعية.

صلة الشاعر معاوية:

لقد أورد صاحب الأغاني روايات عنه تعد - على قلتها - أساساً في وضع الأحكام التي سيعالجها البحث عند الحديث عن الجوانب الخفية من حياة الشاعر الخاصة وعن حياته العامة، فهي الزاد الذي يمكن أن تدرس على ضوءها البواعث في شعره. ومن روايات الأغاني قوله بعد أن أورد مهاجاته للفرزدق: أخبرني هاشم بن محمد الخزاعي قال: حدثني محمد بن عبدالله بن مالك الخزاعي قال حدثني عبدالله بن ياسر قال: أخبرني أيوب بن أبي أيوب السعدي قال قدم مسكين الدارمي على معاوية، فسأله أن يفرض له فأبى عليه، وكان لا يفرض إلا لليمن، فخرج من عنده مسكين وهو يقول:

- أَخَاكَ أَخَاكَ إِنْ مَنْ لَّا أَخَا لَهُ... كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَمَا بِغَيْرِ سِلَاحٍ
- وَإِنْ ابْنَ عَمِّ الْمَرْءِ فَأَعْلَمُ جَنَاحَهُ... وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَايَزِي بِغَيْرِ جَنَاحٍ

- وَمَا طَالَبُ الْحَاجَاتِ إِلَّا مُعْتَرِئًا... وَمَا نَالَ شَيْئًا طَالِبٌ كَنَجَّاحِ

قال السعدي: فلم يزل معاوية كذلك حتى عزت اليمن وكثرت وضعفت عدنان، فبلغ معاوية أن رجلاً من أهل اليمن قال يوماً هممت ألا أدع بالشام أحداً من مضر بل هممت ألا أحل حيوئي حتى أخرج كل نزارى بالشام، فبلغت معاوية، ففرض من وقته لأربعة آلاف رجل من قيس سوى «خندف» وقدم على ثقفية ذلك عطارد بن حاجب على معاوية، فقال له: ما فعل الفتي الدارمي الصبيح الوجه الفصيح اللسان يعني مسكيناً فقال صالح يا أمير المؤمنين، فقال: أعلمه أني قد فرضت له في شرف العطاء وهو في بلاده، فإن شاء أن يقيم بها أو عندنا فليفعل، فإن عطاء سيأتيه وبشره بأني قد فرضت لأربعة آلاف من قومه من خندف^(١٧١). هذه أولى روايات الأغاني أما الثانية فتقول: (أخبرني محمد بن يزيد قال: حدثني حماد بن اسحاق الموصلي قال: حدثني أبي، عن الهيثم بن عدي، عن عبدالله بن عياش قال: كان يزيد بن معاوية يؤثر مسكيناً الدارمي ويصله، ويقوم بجوانحه عند أبيه، فلما أراد معاوية البيعة ليزيد تهب ذلك، وخاف ألا يملكه عليه الناس لحسن البقية فيهم، وكثرة من يرشح للخلافة، وبلغه في ذلك ذرؤ كلام كرهه من سعيد بن العاص، ومروان بن الحكم وعبدالله ابن عامر فأمر يزيد مسكيناً أن يقول أبيتاً، وينشدها معاوية في مجلسه إذا كان حافلاً، وحضره وجوه بني أمية، فلما اتفق ذلك دخل مسكين إليه وهو جالس، وابنه يزيد عن يمينه، وبنو أمية من حوالبه وأشراف الناس في مجلسه، فثل بين يديه وأنشأ يقول:

- إِنْ أَدَعُ مَسْكِينًا فَإِنِّي ابْنُ مَعْتَرِئٍ... مِنْ النَّاسِ أَحْسَبِي عَنْهُمْ وَأَذُوذُ -
- أَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَحَلْتَهَا... تُشِيرُ الْقَطَا لَيْلًا وَهِنَّ هَجُوذُ -
- أَلَا لَيْتَ شِعْرِي مَا يَقُولُ ابْنُ عَامِرٍ... وَمَرَوَانُ أَمْ مَادَا يَقُولُ سَعِيدُ -
- بَنِي خُلَفَاءِ اللَّهِ مَهْلًا فَبَاتَمَا... يُبَوِّوْهَا الرَّحْمَنُ حَيْثُ يُرِيدُ -
- إِذَا الْمَشْبَرُ الْعَرَبِيُّ خَلَاهُ رَيْهٌ... فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ -

إلى آخر القصيدة ثم ذكرت الرواية أن معاوية قال: (تنظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله، قال: ولم يتكلم أحد من بني أمية في ذلك إلا بالإقرار والموافقة، وذلك الذي أراده يزيد، ليعلم ما عندهم ثم وصله يزيد ووصله معاوية فأجزلا صلته)^(١٧٢).

أما الرواية الثالثة التي تعرف منها بعض جوانب حياة الشاعر العامة ومشاركاته في أحداث عصره فقد أوردها صاحب أنساب الأشراف في معرض حديثه عن ثورة الخوارج ضد خلافة معاوية فتقول

الرواية بعد أن ذكرت انتصار والي معاوية على المستورد الخارجي: (وكان من رجز مسكين بن عامر الدارمي يومئذ:

- أَضْرِبُهُمْ وَلَوْ أَرَى مَسْتَوْرَدًا... تَرَكَتُهُ فِي الْقَاعِ يَكْبُو مُقْصِدًا -
ثم ذكرت الرواية أن المغيرة بن شعبة والي معاوية على الكوفة أوفد مسكيناً وأبا الرواغ إلى معاوية فوصلها وزاد في إعطائها^(٦٨).

وإذا أضفنا إلى ذلك مترلته عند والي العراق زياد بن سمية وأنه كان يبره ويرعيه الحمى في عام القحط ويصله بالطعام والكساء ثم رثاه له عند موته وبكائه عليه في مثل قوله^(٦٩).

- رَأَيْتُ زِيَادَةَ الْإِسْلَامِ وَلَتْ... جِهَارًا حِينِ وَدَعْنَا زِيَادًا -
وجهره بذلك رغم ما يكنه أهل العراق وتميم خاصة وأمرة مسكين لزياد من بغض، وما كاد يمر عليه هذا الموقف من ملاحاة مع ابن عمه وشاعر قومه الفرزدق، كل ذلك يجعلنا على علم بموقف الشاعر من بني حرب وصلته بهم، وتبين لنا أنه صوت قوي يمثل الخليفة ويعبر عن رأيه الخاص بل هو الناطق بلسانه أمام الأمة فيما لا يستطيع الخليفة نفسه أن يواجه به الناس، وليس ذلك وحسب، بل إن رواية الأصفهاني تصور مسكيناً وهو يتدخل بشعره لحسم بعض الخلافات بين بني أمية على نحو ما جهر به على الملأ في مجلس معاوية معلناً رغبة الخليفة في أن يكون ابنه هو الوارث للخلافة وبذلك قطع كل أمل كان براود أقطان البيت الأموي. وأعلن ذلك صراحة دونما تورية أو تلميح، فصدع بأسماء من كانوا ينافسون يزيد وساء لهم ماذا يريدون؟ ثم ماذا يقولون في خلافته ثم لا يترك لهم الإجابة بل يعلن أن الخلافة إرث. سيتقل إليه وعليهم أن ينصرفوا عن رغبتهم في الخلافة والطمع فيها إلى ما أراد الله وأن عليهم أن يطيعوا ويسمعوا:

- بَنِي خُلَفَاءِ اللَّهِ مَهْلًا فَإِنَّمَا... يَبْرُؤُهَا الرَّحْمَنُ حَيْثُ يُرِيدُ -
- إِذَا الْحِسْبُ الْعَرَبِيُّ خَلَاءَ رُبُّهُ... فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ -

فهو هنا لم يعد شاعراً فحسب وإنما هو ناطق رسمي باسم الخليفة وقد عرف بنو أمية مكاتته عند معاوية فلم ينله منهم مكروه، لأنه يعبر عن رغبة الخليفة وربما كان ذلك بإيعاز منه مستغلاً شاعرية الدارمي ولم تكن وظيفته في بلاط معاوية تطوعاً ولكنه أصبح موظفاً رسمياً في البلاط ففرض معاوية له في شرف العطا عندما احتاج إلى خدماته ليقوم بنشر ما يريد ويعبر عن سياسته وقد كان قبل الحاجة إليه

يحفوه ويحفو قومه كافة وعندما احتاجه لم يكتف بضمه إلى ديوان الشام مع ثمانية آلاف من العدنانيين بل جعله في شرف العطاء. والخليفة يسوس أمة ويرعى مجتمعاً وقد رأى أن التطرف في الغيرة والشطط فيها بلغ حداً مضرّاً بعلاقات الناس وعرض بعض من لا يستهان بهم من الشعراء إلى مطاردة الولاة وهدر الدم والتغريب من الأرض كما وصف جميل:

- أَنَايِي عَنْ مَرْوَانَ بِالْغَيْبِ أَنَّهُ... مُقْبِدُ دَمِي أَوْ قَاطِعُ مِنْ لِسَانِيَا -
- فَمَيِ الْعَيْسِ مَنَجَّاقًا، وَفِي الْأَرْضِ مَذْهَبٌ... إِذَا نَحْنُ رَلَعْنَا لَهُنَّ الْمَسَانِيَا -

وقد لقي الشعراء العذريون وغير العذريين عناء في سبيل حبه الطاهر العنيف ولم يسلم الخليفة وأهله من ألسنة الناس وشعر^(٧١) الشعراء فأظهر الخليفة تبرمه وغبه من الشطط في الغيرة والإفراط فيها، وبدأ يلقي في أحاديثه العامة ما يدل على إنجازه إلى محاربة هذه الظاهرة فقد روي البلاذري في أنساب الأشراف عن المدائني وغيره أن معاوية قال: ثلاث من السؤدد: الصلح واندحاق البطن وترك الإفراط في الغيرة^(٧٢) ولم يكتف بالكلام بل عمد إلى التطبيق العملي كما تقول اليوم عندما شب عبد الرحمن بن حسان بإحدى نساته في قصة رواها البلاذري عن المدائني أيضاً على هذا النحو (عن أبي عبد الرحمن بن المبارك قال: شب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري، بأخت معاوية، فغضب يزيد فقال لمعاوية: يا أمير المؤمنين اقتل عبد الرحمن بن حسان: قال ولم يا بني؟ قال: إنه شب بعيني قال: وما قال فيها؟ قال:

- طَالَ لَيْلِي وَبِتُّ كَأَلْمَحْزُونٍ... وَمَلَلْتُ الْغَوَاةَ فِي جِبْرُونِ -
قال: وما علينا يا بني من طول ليله وحزنه أبعد الله، قال إنه يقول:

- وَلَذَلِكَ اغْتَرَّتْ بِالشَّامِ حَتَّى... ظَنَّ أَهْلِي مَرْجَمَاتِ الظُّنُونِ -
قال وما علينا من ظن أهله؟ قال إنه يقول:

- هِيَ زَهْرَاءُ مِثْلُ لَوْلُوءِ الْغَوَاةِ... صِ مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرِ مَكُونِ -
قال: صدق يا بني إنها لمن جوهر مكنون، قال وإنه يقول:

- وَإِذَا مَا نَسَبَتْهَا لَمْ نَجِدْهَا... فِي سَنَاءِ مِنَ الْمَكَارِمِ ذُونِ -
قال صدق وهي بحمد الله كذلك قال إنه يقول:

- نُمُّ عَاصِرَتْهَا إِلَى الْقُبَّةِ الْخَضْرَاءِ... بَرَاءِ نَحْشِي فِي مَرْمَرِ مَسْنُونِ -

قَالَ لَا وَلَا كُلُّ هَذَا، ثُمَّ ضَحِكَ وَقَالَ مَا مَا قَالَ أَيْضاً؟ قَالَ: قَالَ:

- قُبِعَ مِنْ مَرَاجِلَ شَيْدُوهَا...عند حَدِّ الشَّاءِ فِي قَيْطُونِ-
- عَنْ يَسَارِي إِذَا دَخَلْتُ مِنَ الْبَابِ وَأَنْ كُنْتُ خَارِجاً عَنْ يَمِينِي-
- تَجْعَلُ الشَّدَّ وَالْأَثْوَةَ وَالْعَوْمُ...ذَ صِلَاءَ لَهَا عَلَى الْكَائُونِ-
- وَقَبَابُ قَدْ أُشْرِجَتْ وَيُوتُ...نَطْفُوهَا بِالْأَمْسِي وَالرَّزْجُونِ-

قال يا بني لا يجب القتل في هذا، والعقوبة دون القتل تغرية فيزيد في قوله ولكننا نكفه بالتجاوز والصلة، فوصله وصرفه (٧٣).

إذن فالغيرة لم تعد مشكلة إجتماعية فحسب فقد أصبحت مشكلة سياسية أيضاً والخليفة أصبح يواجه واقعاً إجتماعياً يراه مجانفاً للصواب وضاراً بالأمن الذي يهيمه أن يتمتع الرعية به، ويود لو أطلع الناس عنها أو قللوا من الشطط والتطرف فيها.

ووجد من لسان الدارمي ما ينهض بنقل وجهة نظره وقد عرف ذلك منه في أخطر المواقف وأكثرها حساسية على نحو ما سر من أمر الخلافة وتبدعة توريث الملك، ولعل الشاعر في موقفه الذي يعرضه البحث كان مستجيباً إلى موقف الخليفة من الغيرة عندما صدع بشعر اصطبغ بلون متميز عن غيره وظهرت فيه روح البعد عن الشطط وقد يكون تأثر باتجاه الخليفة إن لم يكن ذلك قد جاء بتوجيه صريح مباشر منه أو ربما تجاوباً وإجماعاً خفياً مع رغبته التي أظهرها للناس، فنحن الآن نعرف مسكيناً ونعرف صلته ببلاد معاوية ونعرف مكانته عند الخليفة كما نعرف شجاعته الأدبية فيما عرض من مواقف تصدى لها بالرغم من إجماع الناس على غيرها في الأغلب الأعم، ونعرف من جانب آخر موقف الخليفة من الإفراط في الغيرة ومحاولته دره شطط الناس وجموح عواطفهم فلماذا إذن لا يكون موقف الشاعر في هذا المنحى إستجابة لرغبة الخليفة وتعبيراً رسمياً عن الرفض للتأدي في عادة بلغت حد الضرر الاجتماعي فحاول الخليفة التقليل منه وحذر الناس من الإيغال فيه، ولم يستطع معاوية التصريح برغبته لأن الغيرة في حقيقتها الأمر خصلة كريمة وخلق محمود وعرف اجتماعي يعبر عن مروءة، ولن يحازف الخليفة بإصدار أمر صريح يمنع ذلك حتى لا يتعرض موقفه للنقد الاجتماعي (٧٤) مع ما عرف عنه من حذر شديد في مواجهة الناس بما لا يرضون، وشهد له بالجمالة حتى ضرب المثل بشعرة معاوية، والبيعة ليزيد مثلاً أخذت وقتاً ليس يسيراً ومرت سنوات عدة ومشاورات طويلة مع ولاته وخاصته وأهل بيته قبل إعلانها، وتردد عن مواجهة الناس بها بالرغم من عقده العزم عليها وعندما

وصل إلى القناعة التامة بتوريث الملك لم يجعل نفسه المصدر الأول الذي يفاخى به الناس بما يعتقد أنهم يرفضونه فاختار مسكيناً للقيام بذلك حتى يكون البادى المقترح لرغبته التي يبتها وأحكم الأمر لها.

إن الاحتمال الوارد هنا هو أن الخليفة كان وراء موقف مسكين وهو احتمال ممكن خاصة بعد أن علمنا الصلة القوية التي تمت بينها. وهو أحد احتمالين يطرحهما البحث لتفسير خروج مسكين عن الإجماع ونظراته الخاصة إلى الغيرة.

أما الاحتمال الثاني فيدور حول حياة الشاعر الخاصة، ويلتمس ما قد يعث على ذلك الموقف من منطلق ذاتي بحث وقد أسعفتنا الأصفهاني بروايات منها قوله: ^(٧٦)

«أخبرني محمد بن خلف بن المرزبان قال: حدثنا أبو العيلاء، عن الأصمعي قال: خطب مسكين الدارمي فتاة من قومه فكرهته لسواد لونه وقلة ماله، وتزوجت بعده رجلاً من قومه ذا يسار، وليس له مثل نسب مسكين، فتربها مسكين ذات يوم، وتلك المرأة جالسة مع زوجها فقال:

- أَمَا مِنْكِينُ لَمَنْ يَغْرِفُنِي... لَوْنِي السُّمْرَةُ الْوَأَن الْعَرَبُ -
 - مِنْ رَأَى ظَنِباً عَلَيْهِ لَوْلُو... وَاصِحَّ الْخَدَّيْنِ مَقْرُوناً بِضَبْ -
 - كَيْبَتُهُ الْوَرِقُ الْبَيْضُ أَبَاء... وَلَقَدْ كَانَ وَمَا يُدْعَى لِأَبْ -
 - رَبِّ مَهْزُولٍ سَمِينٍ بَيْتُهُ... وَسَمِينِ الْبَيْتِ مَهْزُولُ النَّبْ -
 - أَضْبَحَتْ طَمَاحَةً مُغْتَلَّةً... قَرَمَتْ بَلْ هِيَ وَخَمَى لِلصُّحْبْ -
 - أَضْبَحَتْ تَرْزُقُ مِنْ شَحْمِ الدَّرَا... وَتَحَالُ السُّلُومَ ذُرّاً بُنْتَهَبْ -
 - لَا تَلْمَهَا إِنَّمَا مِنْ بِنُوَّةٍ... صَحْبَاتٍ مِلْحَهَا فَوْقَ الرَّكْبِ ^(٧٧) -
 - كَشْمُوسِ الْحَبْلِ يَبْدُو شَعْبُهَا... كَمَا قَبِلَ لَهَا هَالِ وَهَبْ -

هذه الرواية وهذه القصيدة تصلحان مدخلاً جيداً إلى حياة الشاعر الخاصة التي ربما كانت ذات أبعاد ودلالات. في اتجاهه إلى الرصانة في الشعر، وإلى الموقف التأمل في الحياة وعلاقت الناس وروابطهم وهناك رواية أخرى أوردتها الأصفهاني نرى من الملائم أن نروها قبل أن نخص القصيدة بمحدث. تقول هذه الرواية: ^(٧٧) (أخبرني محمد بن الحسن بن دريد قال: حدثنا عبد الرحمن بن أخي الأصمعي قال: حدثني عمي قال: كانت لمسكين الدارمي امرأة من منقر، وكانت فاركاً كثيرة الحسومة والمأظلة له فاجتازت به يوماً وهو ينشد قوله في نادي قومه:

- إِنْ أَلُّكَ مِنْكِينَا فَمَا قَهَّصَتْ... قَلْبِي بِبُيُوتِ الْحَيِّ وَالْجُنْدِ -

فوقفت عليه تسمع حتى إذا بلغ :

- نَارِي وَنَارُ الْجَارِ وَاحِدَةٌ... وَالْبَيْهَ قَبْلِي نَزَلُ الْقِدْرُ -

فقلت له: صدقت والله، يجلس جارك فيطبخ قدره، فتصطلي بناره، ثم يترطها فيجلس يأكل وأنت بجذائه كالكلب، فإذا شبع أطعمك أجل والله إن القدر لتزلّ إليه قبلك، فأعرض عنها ومزّ في قصيدته، حتى بلغ قوله:

- مَا ضَرَّ جَاراً لِي أَجَارُورُهُ أَلَّا يَكُونَ لِبَيْتِيهِ مِسْرُ -

فقلت له: أجل، إن كان له ستر هنكته، فوثب إليها بضرها وقومه بضحكون منها.

لا شك أن هاتين الروايتين تعطيان مجالاً معقولاً لإدارة الحوار حول حياته الخاصة وعلاقته بالمرأة الزوجة، فالرواية الأولى تجعل مسكيناً قليل القبول لدى النساء وتصور حظه القليل من حين وتصف لونه الداكن كما تذكر رغبتين عنه إلى غيره ممن هو أقل منه مكانة اجتماعية كما تضيف الرواية عاملاً آخر باعد بينه وبين النساء وهو أنه قليل المال والنساء لا يعطين بعد الجمال والشباب مثل المال كما قال الفحل (٧٨).

إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ... فَلَيْسَ لَهُ مِنْ وَدْهِنٍ نَهْيَبُ
يُرِدْنَ نَرَاءَ الْمَالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ... وَشَرَحَ الشَّبَابَ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ

وصاحبنا لم يكن ذا مال ولا جمال وقد ألجأه شعوره بذلك إلى الدفاع عن لونه والاحتجاج لسمرته بأنها صفة العربي الأصيل: «لوني السمرة ألوان العرب» أما قلة المال فلم تسع له حجة في ذلك، ولعل انخياره إلى جانب الولاة ومجاراته للخليفة كان محاولة منه لكسب المال والجاه وقد باءت محاولته الأولى مع المرأة بالفشل وكان لذلك أثر في نظرتيه إلى الحياة بعامة وإلى حياته خاصة وإلى السلوك الإنساني كله بما فيه سلوك المرأة وطبايعها.

ولكنه لم يكن عدوانياً في موقفه معها بل كان ليناً تقبل القضية بهدوء وعرض رأيه فيها على الواقع الاجتماعي والنظرة العامة ولم يجعل سبب ذلك عدم الرغبة فيه ولكن الطموح إلى فضل ليس لديه ولا يستطيع تحقيقه لنفسه فحمل ذلك على طلب المال وليس البغض له أو النفور منه.

- كَسِبَتْهُ الْوَرَقُ السُّنْبُ أَمَا... وَلَقَدْ كَانَ وَمَا يُدْعَى لِأَبْ -

أما الرواية الثانية ففيها أثر من حادثة الرواية الأولى التي أخفقت فيها محاولته مع المرأة المخطوبة. فقد صارت هذه المرأة زوجاً وهي مبغضة، سيئة العشرة رجلة تغشى النوادي وتلم بمجالس الهي، وتظهر المقت والبغض له، فيقودها ذلك إلى أن تجرد في شعره الذي يعرضه على قومه معاني تقبل الأمرين وتفهم على المعينين فقلب ما أراد إلى ضده، فإذا زعم أن ناره وثار الجار واحدة وأنه المتفضل على الجار يشركه في طعامه وشرابه ويكفيه مؤنة الحياة، أصرت هذه الزوجة السليط اللسان على أن العكس هو الصحيح وأن الشاعر يعيش عائلة على جاره، وأنه صادق عندما يصف أن قدرهما واحدة ولكنها قدر الجار وليست قدر الشاعر. ولم تبخل عليه بصفات لا تدل إلا على تأصل الكراهية والبغض الدفين فتصفه بصفات مقذعة ثم تجعل الرواية الشاعر يعرض عن ذلك ويمر في إنشاده كأنه لم يسمع، متجاهلاً ما تصفه به من الصفات البذيئة حتى إذا أخذ في واد آخر متحدثاً عن مروءته وخلقه مع جاره:

- أَعْمَى إِذَا مَا جَارِيَّ بَسَّرْتُ... حَتَّى يُؤَارِي جَارِيَّ الْخَلْدُ -
- مَا ضَرَّ جَاراً لِي أَجَاوِدُ... أَلَّا يَكُونَ لِبَيْتِهِ سِئْرُ -

أعادت توجيهها لشعره مرة أخرى مواصلة الحديث جاعلة زوجها هناك لكل ستر فلا يني الجار منه خلق ولا يحميه ستر.

وشخصية هذه المرأة لا يمكن تجاوزها دون وقفة متأنية يبحث فيها عن أثرها في موقف الشاعر من المرأة وعلاقته الخاصة بها والتعامل معها، ويحمل الانطباع عن المرأة التي أقترن بها الشاعر أنها امرأة جسور برزة تغشى النوادي وتلقى الرجال وتشارك في نقد الشعر وهي مبغضة قالية لزوجها ومادامت هذه شخصية الزوجة التي عاش معها الشاعر في كنف واحد فما عسى أن تصنع غيرة مثله على مثلها من النساء وقد ظهر عاجزاً عن اتقاء لسانها به السيطرة عليها والتحكم في سلوكها، إنها أقوى منه في مواجهة الناس وأجرؤ منه بما تريد أن تقول ومثلها لا تعيش مع رجل غيور، ولا تعدل غيرته شيئاً من سلوكها.

لكن هل نقول إن موقفه من الغيرة وإنشاده الشعر الذي يدعو فيه إلى التسامح وعدم الإفراط فيها جاء نتيجة وإنعكاساً لحياته الزوجية وعلاقته الخاصة بالمرأة وهل نزع من أنه تبرير وهروب من واقع لا يستطيع تغييره لاستخذائه أمام هذه الزوجة ربما كان شيء من ذلك وارد، وربما كان موقف الخليفة من الغيرة قد شجع الشاعر على رفض الواقع الاجتماعي الذي فرض عليه باقترانه بهذه الزوجة فاجتمع عليه الأمران ونتيجة إلحاحها واجه المجتمع برأيه المخالف للعادات الاجتماعية.

كل ذلك يمكن أن يكون أمراً معقولاً لتفسير موقفه الشاذ. ولا يبعد أن تلك الظروف جميعها أحاطت به وجعلته يصل إلى ما وصل إليه من رأي لا يجذب الغلو في الغيرة بعد أن تحقق له أنها غير قبينة بتحقيق المدف الذي يراد منها.

وأياً ما كان الأمر فقد وجد في شعر مسكين الدرامي ظاهرة استحكمت هذا البحث وكانت موضوعاً جديداً في الأدب العربي تميز على لسانه وفي شعره، ومات معه ولم يتطور بعده.

وأخيراً إن لم يهتد البحث إلى صواب التعليل فحسبه أنه طرح الموضوع للمناقشة.

المواش

- (١) مثل فن الغزل الصريح الذي ينسب إلى عمر بن أبي ربيعة وبدايته كانت منذ الجاهلية.
- (٢) مثل الغزل العذري الذي ينسب كما له إلى عدد من الشعراء وهو موجود من الجاهلية وكذلك فن النقاظ الذي تميز واكتمل على لسان أكثر من شاعر في عصر بني أمية أما أصله عرّف منذ الجاهلية.
- (٣) ديوان امرئ القيس، ١٧٦. وتاريخ النقاظ ٤٨ وفيه بعض الاختلاف في ترتيب الأبيات وأشطرها. وهي صورة بداية للنقاظ قبل كما لها الغني.
- (٤) أنظر كتاب الغزل في العصر الجاهل للدكتور أحمد الحوفي فقد تبين فيه نشأة الغزل في الجاهلية وذكر عدداً من شعره ولا سيما في الباب الذي عقده لمناقشة الآراء حول بدايته من ١٤٨.
- (٥) أنظر مادة غيـره في لسان العرب، والمصباح.
- (٦) جاء في الإصحاح في لغة قبيلة الغيرة غار الرجل على امرأته بغار غيرة ثارت نفسه مبالغة في المحافظة عليها.
- (٧) الزهر في علوم اللغة، ج ١، ص ١٥٨.
- (٨) العقد الفريد، ج ٢، ص ١٨٦، وأمثال المرتضى، ج ١، ص ٢٧٣.
- (٩) الأمثال لأبي علي الفاي، ١٠٦ الزهر في علوم اللغة ج ١ ص ١٥٨.
- (١٠) الحيوان، ج ٢، ص ٢٠٦.
- (١١) أخبار النساء، ١٠.
- (١٢) جميع الأمثال ج ٢، ص ١٣٢.
- (١٣) المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٩٥.
- (١٤) الأغاني، ج ١٤، ص ٦٨.
- (١٥) المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٩٤.
- (١٦) الأغاني، ج ١٤، ص ٦٨.
- (١٧) الأسراء، ٣١.
- (١٨) الأعمام، ١٥١. ومثل هاتين الآيتين جاء قوله تعالى (وكذلك زين لكثيرين من الشركين قتل أولادهم شركائهم، الآية، سورة الأعمام ١٣٧. وفي تفسيرها جاء قول بعض المفسرين: زينوا لهم قتل أولادهم خشية الأملق، ووأد البنات خشية العار) انظر مختصر تفسير ابن كثير، ج ١ ص ٦٢٢، إذن قتل الولد في القرآن سبه الظاهر هو الفقر سواء بتزيين الشركاء أو بغيره.

- (١٩) التكوير، ٨.
- (٢٠) التحل، ٥٨.
- (٢١) وقد يقال: إن الرجال هم عماد القبيلة في الجاهلية، وأن وأد الذكور من الأولاد خوف الفقر يضعف مكانتها بين القبائل لذلك كان الوأد للأشئ خاصة التي لا تحتاجها القبيلة للدفاع عنها، لولا أن الفسرين والتورخين ذكروا أن عادة بعض العرب ألا تتد البت حتى تبلغ من العمر ست سنوات أو أكثر، ولو كان الفقر هو السبب الوحيد للوأد لما انتظر أبوها وأنفق عليها هذه اللدة ثم قتلها عندما صارت مؤنثاً أقل والتعلق بها أقوى. ولا نقول: إن الفقر ليس سبباً في الوأد فقد صرح القرآن بذلك وهناك روايات تدل على الوأد خوف الفقر، إنما نقول: إن الغيرة سبب محتمل للوأد لما أوضحنا في متن البحث من نصريح بعض من وأد بأنه يفعل ذلك خوف العار وليس خوف الفقر.
- (٢٢) التواد في اللغة، ٢١.
- (٢٣) ديوان كثير، ٣٨٦.
- (٢٤) ديوان عمر بن لجأ التيمي، ١٠٢، ١٠٥، ١٣٢.
- (٢٥) الديوان، ١٠٥.
- (٢٦) الديوان، ١٣٢.
- (٢٧) الديوان، ٢٧.
- (٢٨) انظر ديوان زيد بن الطيرة، ٧٤، ٧٥، ٩٨.
- (٢٩) ديوان ذي الرمة، ٩٧٩.
- (٣٠) ديوان كثير عزة، ص ١٣٦.
- (٣١) ديوان عبد بني الحسحاس، ص ٣٥.
- (٣٢) ديوان ذي الرمة، ص ٨٧٢.
- (٣٣) ذي الرمة، ص ٧٧٥.
- (٣٤) ديوان الزاهي، ص ٨٣.
- (٣٥) ديوان جميل بثينة، ص ٨٧.
- (٣٦) ديوان كثير، ص ٢٠٠.
- (٣٧) ديوان جميل بثينة، ص ٦٠.
- (٣٨) ديوان بن قيس الرقيات، ص ١٢٢.
- (٣٩) ديوان امرئ القيس، ص ١٦٣.
- (٤٠) ديوان الزاهي، ص ٤٨.
- (٤١) ديوان جميل بثينة، ص ٧٤.
- (٤٢) المصدر السابق، ص ١٩.
- (٤٣) ديوان ذي الرمة، ج ٢، ص ١٢٠٩.
- (٤٤) ديوان كثير، ص ٩٥.
- (٤٥) أنساب الأشراف، ج ١، ص ١٨.
- (٤٦) اسمه ربيعة بن عامر بن أييف بن شريح بن عمرو بن زيد بن عبدالله بن عدس من بني دارم، ومسكين لقب عليه وعرف به كأغلب الشعراء الذين غلبت ألقابهم على أسمائهم ومنهم بن عمه الفرزدق، وليس واضحاً سبب نيزه بمسكين، لكن يظهر من شعره عدم تقبله هذا اللقب إلا على مضض وقد رأى أنه لئق به ولا مجال لتجاهله فذكر بعض التعديلات وتحدث عن القول للضض بهذا الاسم كقولته:

- وحيث مكيننا ونلك لجابة وإني لمكين إلى الله راجب -
وقوله:
- أنا مكين لمن أنكرني ولن يعرني جد نطق -
منه:
- ان أوع مكيناً فإني ابن معشر من الناس أحسي عنهم وأذود -
وقوله أيضاً:
- لعمرك ما لأعواء إلا علامة منار ومن غير المنار ارتفاعها -

(٤٦) الفائق، ج ٢، ص ٦٢٠.
(٤٧) طبقات فحول الشعراء، ج ١، ص ٣٠٩.
(٤٨) تاريخ الرسل والملوك، ج ٥، ص ١٩٧، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢٩٠، ج ٦، ص ٧٠.
(٤٩) أنساب الأشراف، ج ١، ص ١٧١.
(٥٠) خزنة الأدب، ج ٣، ص ٦٩.
(٥١) جمع شعره وحقيقه وضمه في ديوان عبدالله الجبوري وتحليل إبراهيم العظيمة وقد نشر في بغداد عام ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م.
(٥٢) النظر مقدمة الديوان، ص ١٧.
(٥٣) الديوان، ص ٤١.
(٥٤) الديوان، ص ٤٧.
(٥٥) الديوان، ص ٥٥.
(٥٦) الديوان، ص ٢٢.
(٥٧) الديوان، جامعاً ٥٢.
(٥٨) الأغاني، ج ٢، ص ١٧٠ كما أُلحج جامعاً الشعر إلى ذلك في مقدمة الديوان وغالاً أُرثت عنه بعض الأغراض التي يتدر وجودها عند شعراء عصره كما هو الحال في القطعة رقم ٣٦ التي قيل فيها أحسن ما قيل في الغيرة وهي نفس القطعة التي أشار إليها صاحب الأغاني، النظر مقدمة الديوان، ص ١٧.
(٥٩) الديوان، ص ٤٤.
(٦٠) الديوان، ص ٢٨.
(٦١) الديوان، ص ٢٧.
(٦٢) الديوان، ص ٦٧.
(٦٣) للطفيل الغنوي في هذا المعنى قوله:

إن النساء مني ينهن عن علق فبإسه واجب لا بد مسعود

الديوان، ٦١، وأنهار النساء، ١١ وطبائع النساء ١٧٢.
(٦٤) الديوان، ص ٤١.
(٦٥) الديوان، ص ٤٧.
(٦٦) الأغاني، ج ٢، ص ١٧١.
(٦٧) الأغاني، ج ٢، ص ١٧٦.
(٦٨) أنساب الأشراف، ج ١، ص ١٧١.
(٦٩) الأغاني، ج ٢، ص ١٦٨.



- (٧٠) دنوان جمبل؁ ص ٧٣؁ والأغاني؁ ج ٨؁ ص ١٢٥.
- (٧١) تروي الأغاني أن عبد الرحمن بن حسان شهب برملة بنت معاوية وقد لار لذلك يزيد ولكن معاوية أظهر الكثير من التامع مع الشاعر ووصله لينصرف إلى الدبنة ومنع ابنة من الانتقام وقد طلب من الخليفة قتل الشاعر. ولم تطب نفس يزيد فأمر الأخطل بجهاد الأنصار فهاجم بقصيدة منها:
- ذهبت قمرش بالكارم كلها والسلوم تحت عمائم الأنصار -
- فتار التعان بن بشير وافي الخليفة عناه في تهدة ثورة أكرم فريق على المسلمين وبلغ به الأمر مبلغه لما علم أن يزيد وراء هجاء الأنصار وأنه قد أجاز الشاعر.
- الأغاني؁ ج ١٥؁ ص ٨٥؁ ج ١٦؁ ص ٨.
- (٧٢) أنساب الأشراف؁ ج ١ ص ١٨.
- (٧٣) أنساب الأشراف؁ ج ١ ص ١٨.
- (٧٤) ذكر السيوطي في أخبار النساء أن معاوية قد تعرض لتقد الناس عندما نسب إليه قوله السابق: ثلاث من السؤدد ونسبوه إلى قلة العفرة ص ٨٥.
- (٧٥) الأغاني؁ ج ٢٠؁ ص ١٧٤.
- (٧٦) مثل يضرب لسريع الغضب س.ه الخلق كلور العاشرة؁ أنظر للبدائي؁ مجمع الأمثال ج ٢؁ ص ٢٦٩.
- (٧٧) الأغاني؁ ج ٢٠؁ ص ١٧٨.
- (٧٨) إشعار الشعراء السنة الجاهلين؁ ص ١٤٤.

المراجع

- (١) - أخبار النساء؁ تأليف بن القيم الجوزية؁ تحقيق نزار وهسا تاريخ ١٩٨٢م نشر دار مكتبة الحياة.
- (٢) - أشعار الشعراء السنة الجاهلين؁ اختيارات من الشعر الجاهلي تأليف الأعلام الششمري؁ نشر دار الآفاق الجديدة الطبعة الثالثة؁ تاريخ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- (٣) - الإفصاح في فقه اللغة؁ عبد الفتاح الصعدي؁ مادة غير نشر دار الفكر الطبعة الثانية؁ تأريخ ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.
- (٤) كتاب الأغاني تأليف؁ أبو الفرج الأصفهاني؁ تحقيق عبد الستار أحمد فراج؁ نشر دار الثقافة الطبعة الرابعة بدون تأريخ.
- (٥) - أمالي المرتضى؁ تحقيق أبو الفضل إبراهيم.
- (٦) أنساب الأشراف؁ تأليف البلاذري تحقيق إحسان عباس.
- (٧) - تأريخ النفاض في الشعر العربي؁ تأليف أحمد الشاب؁ نشر مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثانية؁ تأريخ ١٩٥٤م.
- (٨) تاريخ الرسل والملوك؁ تأليف محمد بن جرير الطبري؁ تحقيق محمد أبو القضل إبراهيم؁ نشر دار المعارف. الطبعة الثانية بدون تأريخ.
- (٩) كتاب الحيوان؁ للجاحظ؁ تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الباني الحلبي ١٣٥٦هـ.

- (١٠) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تأليف عبد القادر بن عمر اليفغادي، تحقيق عبد السلام هارون نشر مكتبة الخانجي. الطبعة الثانية بدون تاريخ
- (١١) - ديوان أبو الأسود الدؤلي، تحقيق محمد حسن آل ياسين منشورات مكتبة النهضة بغداد، تاريخ ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- (١٢) - ديوان امرئ القيس، جمع حسن السدوني، المكتبة التجارية الطبعة الخامسة بدون تاريخ.
- (١٣) - ديوان تميم بن أفي بن أبي مفضل، تحقيق عزة حسن، دمشق ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م.
- (١٤) - ديوان ثوبة بن الحمير الحفاجي، تحقيق خليل ابراهيم العطية مطبعة الإرشاد بغداد، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م.
- (١٥) - ديوان جميل بثينة، تحقيق بطرس البستاني، دار صادر، تأريخ ١٩٥٣م.
- (١٦) - ديوان ذي الرمة، شرح أبي نصر ورواية ثعلب، تحقيق عبد القدوس أبو صالح مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق تأريخ ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- (١٧) - ديوان زيد بن الطثيرة، تحقيق ناصر سعد الرشيد، نشر دار مكة، تأريخ ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- (٢٠) - ديوان المزهد بن ضرار، تحقيق خليل ابراهيم العطية، مطبعة أميد، بغداد تاريخ ١٩٦٢م.
- (٢١) - ديوان سراقه البارق، حققه وشرحه حسين نصار، لجنة التأليف والترجمة والنشر، تأريخ ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.
- (٢٢) - ديوان القتال الكلابي: تحقيق إحسان عباس دار الثقافة بيروت ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
- (٢٣) - ديوان الطليل الفنوي، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، نشر دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى، تأريخ ١٩٦٨م.
- (٢٤) ديوان سحيم عبد بني الحنحناس، تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميني، نشر الدار القومية للطباعة، تأريخ ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.
- (٢٥) ديوان عبيدالله بن الحر: حياته وشعره، تحقيق وجمع جورج قناز بحث في مجلة الجامعة العبرية في القدس، تأريخ ١٩٨٢م.
- (٢٦) شعر عبيدالله بن الزبير، جمع وتحقيق، يحي الجبوري، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- (٢٧) ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات، تحقيق محمد يوسف نجم نشر دار صادر، تأريخ ١٣٧٨هـ - ١٩٧٤م.
- (٢٨) ديوان كثير عزة، جمع وشرح إحسان عباس، نشر دار الثقافة تأريخ ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
- (٢٩) ديوان مسكين الدارمي، جمع وتحقيق عبدالله الجبوري، وأخر دار البصري، تأريخ ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م.
- (٣٠) ديوان يزيد بن مفرغ الحميري، تحقيق عبد القدوس أبو صالح.
- (٣١) ديوان عمر بن لجا التيمي اليمني. جمع يحي الجبوري، دار القلم، الكويت، الطبعة الثانية، تاريخ ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- (٣٢) ديوان الراعي المري، جمع وتحقيق راينهوت قابيرت، نشر دار النشر فرانكس، بيروت، تأريخ ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م.

- (٣٣) طبائع النساء، تأليف أحمد بن محمد بن عبد ربه، تحقيق محمد ابراهيم سليم، نشر مكتبة القرآن، تأريخ ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
- (٣٤) طبقات فحول الشعراء، تأليف محمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، نشر مطبعة المدني، تأريخ ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- (٣٥) العقد القريد، تأليف أحمد بن محمد بن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين وآخرين، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثالثة، تأريخ ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.
- (٣٦) الغزل في العصر الجاهلي، تأليف أحمد محمد الحوفي، نشر دار نهضة مصر، الطبعة الثالثة، تأريخ ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م.
- (٣٧) كتاب مجمع الأمثال تأليف أحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد عي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة الحمديّة، تأريخ ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
- (٣٨) المرأة في الشعر الجاهلي، تأليف أحمد محمد الحوفي، نشر دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، تأريخ ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.
- (٣٩) المزهر في علوم اللغة تأليف جلال الدين السيوطي، نشر دار إحياء الكتب العربيّة، بدون تأريخ.
- (٤٠) النقائض، نقائض جرير والغزدي، تأليف أبي عبيدة، تحقيق يخن، نشر دار الكتاب العربي، تأريخ ١٩٠٥م.
- (٤١) النوادر في اللغة، تأليف أبي زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأصبهاني، نشر دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، تأريخ ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

